



من فقه التوريث ، هل يستقيم الظل والعود أعوج؟!!

ملف التعليم لمصر في عهد مبارك (4 - 9)

بقلم: رانف محمد الويشي

2 فبراير 2010

إنقاذ مصر:

تناولنا في الحلقة الأولى ملف نهب أراضى الدولة من قبل حسنى مبارك وزمرته ، وتناولنا في الحلقة الثانية ملف نهب القطاع العام ، تناولنا في الحلقة الثالثة ملف الصحة للمصريين في عهد مبارك والذي يمكن أن نصفه وبلا مبالغة بالملف الكارثة .. سنتناول في الحلقة الرابعة اليوم ملف التعليم في مصر تحت قيادة مبارك وابنه جمال ، والذي يشاركه الحكم كما يدل واقع الحال على الأرض ..

ذكرنا في الحلقة الماضية أن الصحة (وضمنها الغذاء والدواء) هي أحد أضلاع مثلث الأمن القومي للدول .. يعتبر التعليم الضلع الثاني في هذا المثلث بينما تعتبر القوة العسكرية والتي هي نتاج كل ملفات تلك الدراسة ضلعها الثالث ..

إذا علمنا أن الدخل القومي المصري يعتمد على عناصر أربعة وهي البترول والسياحة وقناة السويس وعوائد المصريين العاملين في الخارج ، فإننا نرى بوضوح ارتباط التعليم بهذه العناصر وعلى الأخص بالعنصر الأخير ..

لقد حققت مصر نهضة علمية كبيرة عقب الثورة من خلال مجانية التعليم وإنشاء الكثير من معاهد التعليم ومراكز البحوث ، وكان لذلك عظيم الأثر في تخريج علماء أكفاء وعلى مستوى عالي في شتى المجالات وبأعداد كبيرة .. ومع رحيل عبد الناصر أخذت تلك النهضة العلمية في التباطؤ من سرعتها في عهد السادات ثم التوقف في بداية حكم مبارك ثم التراجع كما يحدث الآن ..

هناك دول كثيرة في العالم كانت أقل شأنًا من مصر – ومنها ماليزيا – حتى سبعينات القرن الماضي إلا أنها أنجزت تقدما كبيرا في كل المجالات وكان باب التعليم هو المدخل الذي حققت من خلاله كل إنجازاتها ..

ربما كان التعليق الذي أطلقتة رئيس لجنة التعليم والبحث العلمي بمجلس الشورى د. فاروق إسماعيل في 7 نوفمبر 2009 بنقابة الصحفيين هو أصدق تعبير عن الحالة التعليمية في عهد مبارك ، فقد قال " التعليم في مصر أصبح شعبة في الاتوبيس ووضع الطلبة يشبه أوضاع الركاب في الاتوبيس المصري ، فهناك المتبسط وهناك المهروس وهناك المتشعبط " ، ثم أضاف قاتلا " التعليم الجامعي في مصر يفتقر إلى إستراتيجية طويلة الأمد لا تتغير بتغير الوزير " ..

من الطبيعي إذن أن يقوم أعضاء الحزب الوطني في مجلس الشعب في الأسبوع الثاني من ديسمبر 2009 بإجهاض 9 استجابات تقدم بها 61 عضوا من نواب الأخوان والمستقلين حول انهيار وفساد التعليم في مصر ..

إننا - وبحيادية - نقدم ما يلي من بيانات صادرة من مؤسسات متخصصة - بعضها قومي والآخر دولي بالإضافة إلى تعليقات المتخصصين - لنندل بذلك على انهيار وفساد التعليم في عهد مبارك :

1- في تقرير للأمم المتحدة صدر لسنة 2005 حول ما أحرزته مصر من تقدم ذكر أن 23.13 % من أطفال الفقراء في مصر لا يذهبون إلى الدراسة بل يتجهون للعمل بسبب الفقر المتفشى بين الشعب ..

2- في تقرير التنمية البشرية لعام 2005 الصادر من الأمم المتحدة ذكر أن مصر ضمن البلدان التسعة التي يوجد فيها أعلى معدلات الأمية حيث احتلت المرتبة 119 ، كما احتلت الأمية لدى المرأة المصرية المرتبة 75 من بين 87 دولة شملها التقرير ..

3- في تقرير صادر في عام 2006 من جامعة شنغهاي عن تصنيف أول 500 جامعة في العالم يتبين منه خلو أي جامعة مصرية - أو حتى عربية - من تلك القائمة ، بينما احتلت أمريكا المرتبة الأولى بعدد 168 جامعة وإسرائيل المرتبة الـ 12 بعدد 7 جامعات منهم جامعة ضمن المائة جامعة الأولى عالميا وهي الجامعة العبرية التي تقع في المرتبة 90 ، وجنوب أفريقيا المرتبة الـ 26 بعدد 4 جامعات والهند المرتبة 33 بعدد 3 جامعات وتركيا المرتبة الـ 35 بعدد جامعتين ، وجاءت الجامعة الأمريكية بالقاهرة التي يفتخر خريجوها بأنها أفضل جامعات مصر في المرتبة الـ 1518 ..

لقد اعتمد هذا التصنيف العلمي المحايد على سبعة معايير علمية خالصة منها عدد خريجي الجامعة الحاصلين على جائزة نوبل وعدد أبحاث الجامعة في مجلتَي Nature و Science ومساحة الجامعة وعدد كل من الطلاب والكادر التعليمي بها ..

4- لم يتوقف الفشل التعليمي على المستوى العالمي بل امتد أيضا للمستوى الإفريقي ، ليجلس بجانب الصفر الذي حصلنا عليه عندما اختارت الفيفا جنوب إفريقيا كأفضل دول إفريقيا لتنظيم مونديال 2010 .. ففي التصنيف الإفريقي لأفضل مئة جامعة إفريقية في العام 2006 احتلت جامعة القاهرة المرتبة الـ 28 وسبقها في الترتيب جامعات من أوغندا وموريشيوس وناميبيا وزيمبابوي !! ، واحتلت جامعة عين شمس المرتبة الـ 85 في تلك القائمة الإفريقية ..

5- رصد تقرير مندى دافوس الصادر في 2006 تراجع التعليم والتدريب والاستعداد التكنولوجي الذي يقيس القدرة علي نقل وتطوير التكنولوجيا لخدمة المجتمع في مصر .. فطبقا لهذا التقرير احتلت مصر المرتبة 79 ، في حين جاءت قطر والإمارات والكويت وتونس والمغرب في ترتيب أفضل، أما إسرائيل فجاءت في المرتبة الثالثة علي مستوى العالم ..

6- كان التعليم هو أحد أهم الأسباب التي أوصلت إسرائيل إلى تحقيق تقدم زاهر رغم أن عمر الدولة هو 62 عاما أي نصف المدة التي قضاها مبارك في الحكم ..

أنشأ المستوطنون اليهود في فلسطين الجامعة العبرية في عام 1920 ، بينما أنشأ العالم الكيميائي اليهودي حاييم وايزمان معهداً في عام 1934 للبحوث تحت اسم "دانيال سيف للبحوث" ، في نوفمبر 1949 أعلن رسمياً تغيير اسمه إلى "معهد وايزمان للعلوم" وقد تولى وايزمان نفسه رئاسة الدولة منذ إنشائها في 14 مايو 1948 ..

يعتبر معهد وايزمان منذ إنشائه القاطرة التي تجر الاقتصاد الإسرائيلي بسبب تأثير على إحداث تقدم سريع في جميع مجالات المجتمع الإسرائيلي بما فيها المجال العسكري .. ليس من المستغرب إذا أن يرفع المعهد لافتة كبيرة على مدخله تقول " معهد وايزمان في خدمة إسرائيل ..

يحتل المعهد المرتبة الـ 152 في ترتيب أفضل جامعات العالم طبقا لتصنيف جامعة شنغهاي الذي أشرنا إليه سابقا ، كما يحتل المرتبة الثانية في أفضل جامعات الشرقي الأوسط بعد الجامعة العبرية والتي تحتل دورها الترتيب الـ 90 في تصنيف شنغهاي .. ميزانية معهد وايزمان هي مليار ونصف المليار دولار في عام 2006 (حدود 9 مليار جنيه مصري) وتقسم على كلياته الخمس وهي : الفيزياء ، والكيمياء ، والأحياء ، والكيمياء الحيوية ، وعلوم الحاسب والرياضيات " .. كما أن المعهد المذكور لا يقبل إلا الطلبة الإسرائيليين بين صفوفه حتى يضمن الولاء التام لإسرائيل ، بينما لا تقبل الجامعة العبرية إلا الذين يتكلمون العبرية ..

قدم معهد وايزمان للعلوم أبحاثا علمية متقدمة على المستوى العالمي في مجالات عدة مثل الطاقة الذرية والسرطان واللوكميما

والبصمة الوراثية (D.N.A) والطاقة الشمسية وتكنولوجيا النانو وعدسات النظارات وزجاج السيارات .. كما ساهم المعهد بصورة فعالة في دفع إسرائيل إلى تحقيق صادرات كبيرة للماس بلغت في العام الماضي 5.5 مليار دولار وهو ما يمثل 90 % من صادرات العالم ، علما أنها دولة غير منتجة له بل مصنعة فقط (دخل قناة السويس بلغ 4.281 مليار دولار في عام 2009) .. كما يقف المعهد وراء الكثير من صادرات السلاح الإسرائيلي والذي تحتل إسرائيل مكانة متقدمة فيه عالميا ..

قدم الباحثون العرب في كل دولهم ما مجموعه 2616 بحثا في الفترة 1967 / 1983 بينما قدم باحثوا إسرائيل عن نفس الفترة ما مجموعه 4661 بحثا (كتاب الإنتاج العلمي لمؤلفه أنطوان زحلان والصادر في عام 1985 ص 119) ..
قدم العلماء العرب 836 براءة اختراع في الفترة 1980 / 2008 ، بينما قدم علماء إسرائيل وحدها 16470 براءة اختراع عن نفس الفترة (تقرير منظمة اليونسكو الصادر في 31 مايو 2009) ..

تبلغ ميزانية البحث العلمي في إسرائيل 4.7 % من إجمالي الدخل القومي (أعلى نسبة في العالم) بينما تبلغ مثلتها المصرية 0.1 % .. يقول العالم المصري العالمي د. فاروق الباز لفضائية الجزيرة في 1 أكتوبر 2007 أن كل دولار يُصرف على البحث العلمي في أمريكا يأتي بعائد قدره 142 دولار .. كما يقول أ.د. عبد الله سرور رئيس اللجنة القومية للدفاع عن جامعة الإسكندرية في ندوة عقدت في 29 أكتوبر 2008 بأن ميزانية البحث العلمي في أي قسم بجامعة الإسكندرية لا تزيد عن 350 جنيها سنويا ..

كان عبد الناصر قد تنبه في بداية حكمه إلى التحدي العلمي وصراع الإيرادات الذي كان يمثلته كل من الجامعة العبرية ومعهد وايزمان للعلوم ، فقام بإنشاء المركز القومي للبحوث في عام 1956 والتحق به خيرة علماء مصر في جميع المجالات وساهم بصورة فعالة في تقدم ملموس شعر به المواطن ..

تباطأ المركز القومي للبحوث في تقدمه مع رحيل عبد الناصر ثم توقف هذا التقدم في نهاية مرحلة السادات وتراجع إلى الوراء في عهد مبارك .. إن نظرة واحدة إلى هذا المركز الآن تدل على تحول الباحثين العلماء إلى موظفين لا يذهبون إليه إلا لتلقى رواتب شهرية ومعلوم أن ميزانية المركز في عام 2008 قد بلغت - بعد التطوير والتوسع ! - ما قيمته 350 مليون جنيها أغلبها مرتبات للعاملين بالمركز .. أما آخر ميزانية للتعليم قبل الجامعي في مصر طبقا لما أعلنه وزير التربية والتعليم السابق يسرى الجمل وقبل أيام من رحيله في ديسمبر 2009 فقد بلغت 31.6 مليار جنيه من إجمالي الموازنة العامة للدولة وأضاف أن 25.3 مليار جنيه من المبلغ المذكور هو عبارة عن مرتبات للعاملين أي بما يعادل 85% ..

7- تعتبر الحالة السياسية التي تعيشها مصر (ومعها بقية الدول العربية) من بطش وفساد وتوريث أحد أهم الأسباب التي أدت إلى التدهور الخطير الذي أصاب جميع مناح الحياة وأهمها التعليم بسبب اهتمام القيادة السياسية بالسيطرة على مقاليد الحكم بكل الوسائل

لقد سيطر ضباط أمن الدولة ليست فقط على الطلاب بل على ترقيات وتعيينات ونقل الأساتذة ، وهو ما أدى إلى تسميم المناخ التعليمي بالبلاد .. ليس غريبا إذن أن يضع تقرير اليونسكو الصادر في 31 مايو 2009 مصر في المرتبة الأولى عربيا من حيث هجرة العقول المميزة ..

في هذا الشأن يقول أ.د. عصمت زين الدين عضو اللجنة القومية للدفاع عن جامعة الإسكندرية في نفس الندوة التي أشرنا إليها سابقا والتي انعقدت في 29 أكتوبر 2008 بأن هجرة العلماء هي نتاج للسياسات القمعية وضرب مثلا بالأستاذ محمد الصوان وشبهه بالعالم أحمد زويل مشيرا إلى حصول الصوان على جائزة أحسن عالم بالجامعات الأمريكية ..

8- نختم هذه الحلقة بما قاله د. أحمد زويل في 12 يناير 2010 في مؤتمر عقد في القاهرة وحضره العديد من النخب الفكرية المصرية ، قال ما يلي :

" لا يمكن اختصار العلم في بناء مبنى جديد وملئه بالمعدات الحديثة ودعوة مسئول كبير لافتتاحه ، بل هو نظام كامل للوصول إلى مستوى عال من الإبداع ، أعلم أن بينكم آباء قلقين على مستقبل أولادهم .. لقد تعلمت في مدرسة حكومية مصرية وحصلت وقتها على أفضل نوع من التعليم ، تعلمت التصوير والفن ، تعلمت كيف أحيا في مجتمع كان فخورا بما أنجزته ، وعندما كنت من المتفوقين نشر الخبر في جريدة الأخبار ، وكان أهل مدينة دسوق يهنئون أسرتي .. الجامعات المصرية كانت في القمة ، لو كانوا

دفعوا لي لدخول الجامعة الأمريكية كنت رفضت .. لقد كنت محظوظا عندما عشت في مصر في الوقت المناسب وسافرت إلى أمريكا في الوقت المناسب أيضا ، بعدما نجح الإنسان في الصعود إلى القمر وتم اختراع الليزر وكانت بداية التكنولوجيا البيولوجية ، ومن هناك إلى جامعة كالتيك حيث تعلمت أن السماء هي حدودي ، لا مدير يقول هذا غير ممكن ، أو يجب أن يوقع الوزير على الأوراق ، لا توجد بيروقراطية ، والنظام يسمح بالمجازفة ، ويعرف كيف يقيّم ويقدر العمل ، والجميع يحاول مساعدتي على النجاح وليس الفشل ..

هذا هو المناخ الذي يسمح بإيجاد عقول مبدعة .. هنا تبدو العلاقة العضوية بالتعليم ، تعليم " يثير الفضول" ، وليس نقل الكتب المطبوعة إلى الأدمغة .. في مصر الأيدي العاملة متوافرة ، والمصريون يقدرّون العلماء لكن المسؤولين يرددون أن مصر دولة فقيرة ، لنقارن مع الهند ، ونرى ما تم إنجازه في التكنولوجيا والفضاء رغم الفقر والجهل .. عندما زرت الهند استقبلني الرئيس الهندي بالشورت والصندل وأخذني إلى مكتبه ، تصورت أن أجده مليئا باللوحات والزهور والمقاعد الوفيرة ، لكنني وجدت الكتب في كل مكان ، كأنه مكتب أستاذ جامعة ، تناول الرئيس كتابا من على أحد الأرفف ، وقال هذا ما أريد أن أهديه لك " الهند في 2020 " ، إنه كتاب يوضح رؤية الهند لحل مشاكلها حتى هذا التاريخ .. لقد أغلقنا في مصر عقولنا أكثر وأكثر ودخلنا في متاهات ، علينا أن نعيد التفكير فيما يحدث في التعليم ، لأنه قضية أمن قومي " ..

في الحلقة القادمة – إن شاء الله – سنفتح ملفا آخر من ملفات حكم مبارك ، فإلى اللقاء ..

رائف محمد الويشي

سانت لويس – ميزوري – أمريكا

elwisheer@yahoo.com

تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي :

www.thowarmisr.com